نـافـذة

القدر والاختيار

بيئة بدأ يضيع فيها معناها، كيف نعيد لها الثقة وعالم الخالق يعترف له العقل البشري بعد تأمله بأنه واسع لا حدود له أمام عالم الإنسان الذي ومهما حاول توسعته صغيراً؟ فهو مخلوق ظهر من فعل الخالق، وفي الوقت ذاته يعتبر مظهراً من المشهد الكلي الدال على قدرة الخالق، ورغم أن له استقلاله وله إرادة الاختيار، إلا أن تصرفه يبقى في دائرة صغيرة مما للخالق الهائل، وهذا ما تشترك به الأفكار البشرية أينما وجدت، أي إن للإنسان الحق في التفكير والإبداع والإنتاج، لأنه أيضاً خالق كبير ضمن وساعته، لا أن تنحصر وساعة الإنسان في التفكير ضمن تحديد ذات الخالق أو صفاته أو في شرح علاقته بالكون، أو علاقته بالإنسان، وبالتالي تجده ينحصر بعقيدة الخضوع التام، وصولاً إلى التفاني في المعبود وأفكاره لخصائصه العقلية ووجوده الذاتي، بدلاً من عقيدة إثبات الشخصية والاعتراف بوجوده، كاعترافه بوجود خالقه وفهم عبوديته على أنها العمل والإبداع والتطوير.
لنعلم أن الخالق والعالم معادلة غير قابلة للانفصام، والإنسان واسطة أو رابطة بينهما، وصلة المرء بخالقه أقرب وأسرع من صلته بالعالم، بحكم صلة الروح التي خالطته، وخالطت أي مادة طبيعية، فإذا استوعب الإنسان ما فيه واختص في جزئية منه، وأدرك صفاتها، سار على درب النجاح الذي يوصله حتماً إلى الهدف، وبهذا الوصول يحدث الوصل والاتصال، ليتبين بعدها أن هذا الإنسان الخلاق هو خلاصة العالم.
كيف بنا نتمثل واقعاً خصباً ننجز به تجربة حية فريدة، يأخذ بها مجتمعنا، تعيد بها وصل كيانه، توحد أفكارنا، تمزج بها الروحي بالعروبي بالقومي، نطلق بها وثيقة بارقة، تتداعى منها الخطايا المرتكبة، لتأخذ بنا إلى نطاق المجد الحضاري المنشود، نبتعد به عن التمجيد المزيف، ونتعلق بما يفيدنا واقعاً لا خيالاً.
ما معنى أن يكون الوجود الإنساني بين منعطفي القدر والاختيار؟ ألا يشكل الوجود الإنساني كل أشكال التدفق الغني بالإبداع والخطيئة اللتين يشكل لهما القدر الغطاء والسند والظل؟ أولم تأخذ لغة العالم الجديد مكانها بهدوء مستمر؟ وغزت الفضائل الخلقية التاريخية التي تؤيدها الأديان التي تخلي أماكنها بصمت تدريجي لمصلحة حرية العقل البشري وجسده، اللذين في الأساس لم يكونا مقيدين، لذلك نجد أن العقل ميالٌ للاختيار، ويقبل الاختبار، لأنه إن فعّل العلم والعلمية فيه فكّر فيما يختار، فالخصائص الفكرية وبفضل صفاتها الذاتية تستطيع أن تكيّف أشكال السمات الخاصة التي تظهر من الحوادث، وبوسعها أيضاً تغيير بعض من نتائجها، بينما لا يستطيع الفكر إحداث أي تغيير في ثوابت الأديان التي تعزو كل شيء إلى القدر، ما يقودنا لفرد بعض من مصطلحات مفسري اللغة القدرية، التي تقدم التسامح وتؤمن بالتعصب في الوقت ذاته، لما تؤمن به، وللعلم إن التسامح ليس على تضاد مع التعصب، لأنه يظهر كمناقض له، فالذي يقدر على التسامح يقدر على التعصب، وهنا ألفت النظر إلى أن كلمة التسامح لا توجد إلا عند الشعوب المتدينة، التي تسودها أفكار البر والإحسان، والتي ترهبها السلطات الدينية التي مازالت تعمل وسيطة بين القدر والبشر، وإن كان بشكل خفي، وبالتالي نجد شعوبها متعلقة بموروثها أكثر من سلطات دولها التي تستند في كثير من قوانينها إلى التشريع الوضعي، مع مراعاة احتياجات التنوع وخصوصياته، التي يتعامل معها أيضاً تحت مظلة القانون المادي، وهنا أدخل على مشكلات العوالم الروحية المتدينة، وفقدانها التمييز بين الدين ومقتضياته ومستجدات العصر المتسارعة، الذي أوجد للعقل وساعة هائلة، وأخذت البشرية تبدي حاجتها إلى الكلام المنطقي الواقعي، الذي يقر بها من الحياة أكثر، وأيضاً إلى ما يثير وجدانها، ويغني فكرها، وأكثر من ذلك السعي الحثيث لتطويرها، لأن إرادتها غدت متعلقة فيمن يزيد حيويتها عبر زيادة إسهامها في معارك الحياة الطاحنة، التي تريد أن تخرج منها منتصرة وسعيدة.
القدر والاختيار توءمان يشعر البشر المنقسمون حولهما بأنهما مختلفان جذرياً، وفي الوقت ذاته نجدهما متضامنين كلياً ومرتبطين ارتباطاً وثيقاً في آنٍ واحد، وحتى إلى وقت قريب كان سواد البشرية قدرياً إلى حد كبير، أما الأجيال الحديثة فإنها تواجه اضطراباً جذرياً وسريعاً نتاج وقوع الأحداث المتسارعة أمام ناظريها، مثل تبدل عناصر الطاقة وفلسفة استيعابها، وتطور وسائط الاتصال بشكل مذهل، والوصول إلى كثير من حقائق العالم التي كانت مجهولة بالنسبة له، وانكشاف حجم هائل من الأساطير، ناهيكم عن قدرات هذه الأجيال الجديدة في فهم حدود الكون القابل للزيادة ومفاهيم الإنسانية والمستلزمات الأساسية للحياة والموت، فالحياة والحفاظ عليها وزيادة إنتاجها واستكشافها والعمل لها يعني الحفاظ على الإنسان، لأنه أغلى ما في الوجود، فأصحاب هذا الفكر مخيّرون، أما الموت والأمراض القاتلة والآخرة والحساب والنار والحروب والجنان فأصحابها قدريون، وهنا نصل للقول: إن أهل الخيال والصور غرقى في العنعنة والأقوال، وأهل العلم والبحث في المعنى أهل للأسرار وفكّها وحجبها.
لا يوجد إنسان على وجه هذا الكوكب إلا وينشد السعادة، ويحاول أن يحقق في وجوده لنفسه أكبر قدر منها، وأنى له هذه السعادة، والحياة ممتلئة بمعتركاتها القديمة الجديدة الحديثة والمستحدثة، التي كلما تطورت وتكاثرت موجوداتها تعقدت مشكلاتها، وتشابكت همومها، وتراكمت آلامها؟ فهل يقدر أي إنسان ومهما أوتي من قدرات وإمكانات أن يحقق لذاته الخلاص الكامل منها، أو الانتصار النهائي عليها؟ وكلما اتسعت الحياة تعقدت أكثر، وهذا ما يفرض على إنسانها ضغوطاً أكثر، ويتطلب منه أن يتعلم أكثر، لكي يوائم بينه وبين الحياة.
القدر أعني به الجانب الإلهي المسكون في العقل العالمي والمفعّل بقوة في تفكير الأمة العربية والإسلامية، الذي اعتمده المسلمون بعد أن قدمه المفسر الإسلامي، حيث اعتبره أهمّ بعد في تكوين الإنسان المسلم، وأدى إلى اعتماده على أنه فلسفة إسّلامية رغم محاربة الإسلام للفلسفة، باعتبارها تدفعك إلى البحث والشك، وصولاً إلى اليقين، أي إلى الجوهر، بعد اعتماد العمل العقلي الذي يقودنا إلى الواقعية الفكرية، التي لم يصل إليها حتى اللحظة من منظوري المفكر الإسلامي، لكونه انحصر في فكرة القدر، ولم يقدر أن يخرج منها حتى اللحظة، والسؤال الذي يفرض وجوده على العقل الإسلامي: ما موقف هذا العقل من التطور العلمي والفلسفة العالمية التي تحيط به؟ ومن ثمّ الحداثة التي تغزوه ويتفاعل معها ظاهراً، هل يستطيع هذا العقل إعلان القبول أو الرفض، أو حتى يقدم نقداً، لأن العلمية ذهبت بعيداً في الأمام، فهل يبقى أمام كل ما يجري صامتاً؟
كم من فرصة حضرت لعالمينا العربي والإسلامي بغاية النهوض وقتلها التردد؟ كم من مرة غُزيت هذه الأمة، ودُمر الكثير من مفاصلها، وبقيت مستسلمة تحت مسمى أن هذه الأمة مبتلاة، كما يقول أفرادها لحظة وقوعهم في مصائب هي من صنع أفكارهم؟
إن الله ابتلانا بكذا وكذا من دون البحث في أسباب الوصول إلى ذلك، ولو أخذنا الأمثلة الكثيرة المنتشرة حول كيفية نهوض اليابان، وقبلها أوروبا، وبعدهما كوريا وجنوب شرق آسيا، أولم يصل تفكيرنا إلى هذا المستوى؟
متى سيعترف هذا الإنسان الإسلامي بأنه صاحب الاختيار وهو المسؤول عن كامل تصرفاته، لأنه يمتلك قواه العقلية؟ فإذا ضعفت العقلية أو انعدمت وسائط تفكيرها، عندها لا يمكن أن نتحدث عن أي حرية أو اختيار فيما ينسب إليها من أفعال.. فأين نحن؟ قدريون أم مخيرون؟

د. نبيل طعمة

الحلم الذي عاشه الراحل مسعود بوبو في «الصوت والصدى» ..

متى نصبح قادرين على تسخير طاقة العقل للحياة بغير القتل والتدمير؟

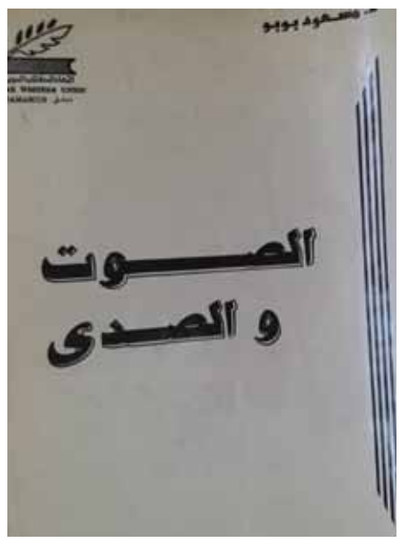

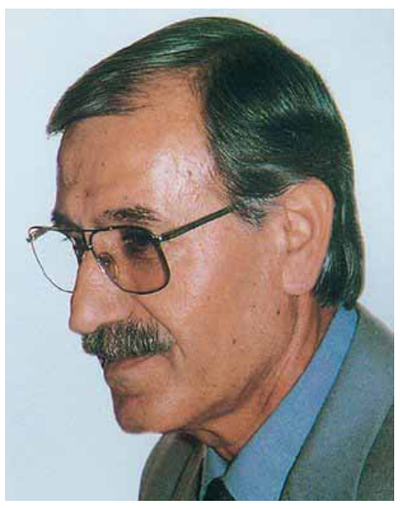
مسعود بوبو

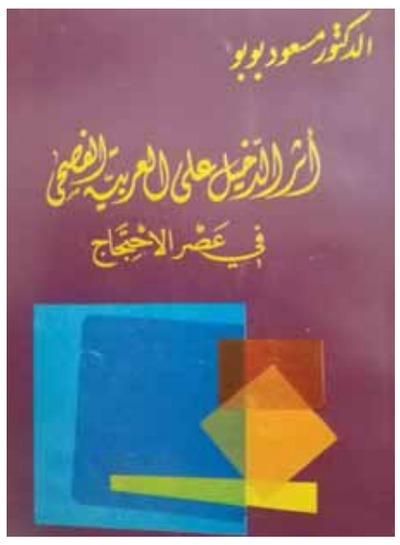

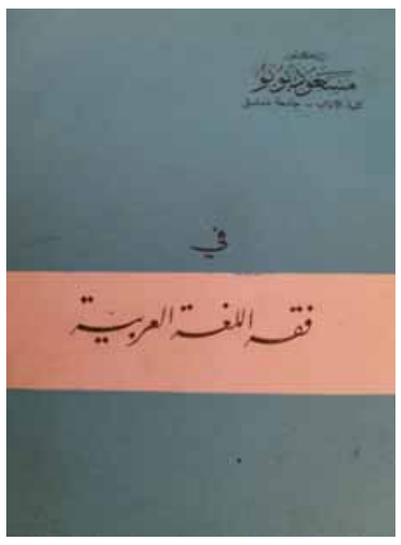

إسماعيل مروة

التقيت مصادفة بشخص أحببته من آل الجزائرلي قبل أكثر من عشرين عاماً في إحدى المكتبات، وكان هذا السيد طريفاً للغاية بحديثه وحركاته وتصرفاته ولباسه، فأنا لم أشهده يوماً بغير اللون الأخضر المزخرف، وبغاية الأناقة، وكان يشير إلى أنه يحب اللون الأخضر لأنه يريحه، ودوماً كان يفلسف الموضوع ببراعة، ولا أكتم أنني اتهمته داخلياً في قدراته، وعرفت فيما بعد أنه أستاذ لمادة الموسيقا منذ عقود، وله مواقف في الحياة لم يغيرها ولم يتنازل عنها، منها أنه أمضى حياته عزباً قارئاً، فما التقيته مرة إلا وكان يحمل كتاباً، وأطرف ما فيه أنه عندما ينتهي من قراءة أي كتاب قد اشتراه يقوم بإهدائه لأحد الموجودين.

وذات يوم قلت له: أين كتابي أنا؟ نظر ملياً وقال: عندي كتاب لا أتوقف عن قراءته، وهو الكتاب الوحيد للكتاب المعاصرين الذي أحتفظ به في مكتبتي، سأعطيك إياه لقراءته، وعندما أحضره كان كتاب (الصوت والصدى) لأستاذي وصديقي الأستاذ الدكتور الراحل مسعود بوبو، والكتاب كان لدي، ولم أكن قد قرأته لصغر حرفه وتواضع إخراجه، لكن هذا الصديق جعلني أحتفظ بنسخته الغالية، وأردت أن أعرف السبب الذي جعل رجلاً مزاجياً مثله يصرّ على الاحتفاظ به، وخاصة أنني عندما قلّبته وجدت خطوطاً ملونة بأقلام فوسفورية من مشتقات الأخضر تغطي جملاً وكلمات وسطوراً!! وحين استعرضتها وجدتها كلها منسجمة مع آراء صديقي التي تلامس الموسيقا وشغف الروح، وها أنذا أعود إلى الكتاب بعد عقدين من الزمن لأقرأ مستذكراً أستاذي الراحل الأستاذ الدكتور مسعود بوبو، الذي جمعتني به علاقة أكثر من طيبة خارج سورية وداخلها، وهو من النادرين الذين لم يتركوا ندوباً في حياة طلابهم وأصدقائهم.

مسعود بوبو والعلم

حدثني أستاذي طويلاً عن مسيرته العلمية الشاقة والشائقة، وعن الناس الذين وقفوا إلى جواره حتى حصّل المكانة اللائقة في العلم والتعليم، وكان واضحاً في حبه لمساعدة الناس كما لقي المساعدة، وفي الجانب العلمي لم يسعف القدر الدكتور بوبو للتصنيف، وآثاره التي اطلعت عليها اقتصرت على تعليمه وحضوري لمناقشات الرسائل العلمية التي كان مشرفاً عليها أو مناقشاً فيها، وفي التصنيف قرأت له كتاباً مهماً في المعرب والدخيل، وكتاباً في فقه اللغة كان مقرراً، وفي فترة متأخرة قرأت له كتابه (الصوت والصدى) إضافة إلى جهوده التي لا تنكر في الموسوعة العربية، وقد كان عملياً فأخرج خلال إدارته العامة لها قسماً كبيراً كان محجوبا بالتردد مع أنه منجز.

> نريد أن نعيش بسلام عندما ندرك أن الآخر يريد ذلك قولاً وفعلاً

الصوت والصدى والعمق

أقف عند الصوت والصدى دون غيره لأسباب عديدة منها أن من السهولة بمكان على اللغوي أن يصنف في اللغة، وعلى الأديب أن يصنف في الأدب المتخصص، لكنه نادراً ما نجد براعة متخصص في مقاربة القضايا العامة، والهموم الإنسانية، وملامسة شغاف الروح والقلب، وهو المتخصص في قضايا لا تقارب الوجدان، ولا تلامسه، فالجاحظ معلم العقل العربي تظهر براعته التأليفية في القضايا العامة مثل البخلاء والرسائل، أما الحيوان والبيان فلا يشكلان مفاجأة كبيرة للقارئ العادي.
في الصوت والصدى ظهر الدكتور بوبو الإنسان المهموم بقضايا الناس، الممتلئ بالوطن والحب، بل ظهر ذلك الأديب المستشرف، القادر على قراءة النتائج كما فعل الشعراء المجلون، وبالاستعانة بما أشار إليه بالألوان صديقي الجزائرلي أقف عند قضايا مهمة في أفكار الأستاذ الدكتور التي تجعله مهموماً بالإنسان غاية الهم، ويعالج هذه الأمور بعمق كبير، وقد يستغرب بعضهم أن الكتاب المطبوع عام ١٩٩٩ م يتحدث عما يحدث في سورية أثناء الحرب عليها وبعمق كبير، وحسبنا أن نقرأ في أي زاوية من الزوايا لنكتشف هذا العمق، وهذه الرؤية الاستشرافية لإنسان متبصر، وها هو يختم كتابه ص٤٦٦ «وحين يأتونها بجثث الشهداء تصير على حافة السفر، وكان الغائب عنها حين يستعيد صداها يصير على حافة البكاء»، وكانت أول عبارة في كتابه تقول: «أطلّ الدليل من عل: بدت المدينة مرمية في السهل الواطئ كمقبرة». بهذا العمق كانت كتابات الصوت والصدى، وحين تنداح الموسيقا فيها تتكون بجنائزية وأمل نبعا من روح الكاتب المرهف.

للإنسان والأرض

يلامس شغاف القلب في محاورة الأرض والإنسان بصوفية مختلفة ولغة غاية في القدرة على الانسراب في روح المتلقي، ومن دون أن يلقي خطبة عصماء أو غير عصماء، أو أن يرفع لافتة لتدل عليه «المطر في الخارج كالرحمة يهمي يغمغم في صدر الأرض كأغنية قديمة ويصعد صلاة مبتعدة عن كوكب السمع والنظر... سلام لمن تستدفئ صدورهم بالأمانة، لحملة المشاعر النبيلة المترفعة عن الصغار والمغافلة والانتهاز.. التحية لأولئك الذين لم تغادر ذواكرهم لحظة واحدة صور الشهداء الذين قضوا في سبيل هذا الوطن.. لا تنقصهم الحياة، ولا تكفيهم الأغاني..» لغة شفيفة روح آمنة نفتقدها اليوم في كتابات مبدعينا وإعلاميينا، وهذه الكتابات كانت ذات يوم منشورة في الصحافة، ولو تابعنا فإننا لن نجد سوى هذه الأحاسيس العليا، والقراءة لما يمكن أن يكون، ولنقرأ مقطعاً لنعرف أن بوبو يكتب عنا اليوم: «الحلم بيوم آمن، بغد آمن، بأرض ومدن في مأمن من الدمار، من يجرؤ على الحلم بذلك، والخيبات المتلاحقة منقوشة في الذاكرة كالوشم تنغص اليقظة، وتكدر الرؤى والمنام؟ فمتى تبلغ البشرية سن الرشد، وتصبح قادرة على تسخير طاقة العقل للحياة بغير القتل والإفناء..».
ولو أردت أن أقبس من صوته والصدى مفردات الوطن والإنسان لعجزت عن ذلك، فكل ما فيه يدل على روح الدكتور الراحل النبيلة والتائقة إلى حب مختلف «النوارس كالأطفال غافية على سرير من هدهدة الموج، والبحر فراش مخمل أزرق مكتحل بالسواد.. من أول الحروف يبتدي العشق والسفر، يبتدي السهر والبوح، وكثيراً ما يبتدي القتل.. وأنا أصدق كل ما قال النبيذ وربع ما قالته مايا..» وفي سمو روحه يقتبس ما قاله نزار قباني في النبيذ ومايا ليدخل في منعرجات الروح والإنسان.

مسعود بوبو الإنسان

تعرفت إلى أستاذي الدكتور مسعود عام ١٩٨٧ في مرحلة الدراسات العليا ومن حسن الحظ أنني اخترت الدبلوم اللغوي ليكون الدكتور أستاذ اللغويات وفقه اللغة من أساتذتنا، وأذكر أن عدداً منهم دخل مستعرضاً عضلاته علينا، ليحملنا ما لا نقدر على استيعابه، وربما على جعلنا نترك الدراسة، وهو دخل يومها، وبهدوء شديد استعرض معنا بعض المواد الفقهية اللغوية من فقه اللغة للثعالبي، وطمأننا إلى أن المادة سهلة إذا تعاملنا معها بحب، ومع أن هذه اللقاءات الأولى على كل صعيد مع أستاذي، إلا أننا لم نحتج إلا للدراسة ومراجعته لنتجاوز المادة فاهمين وراغبين في التحصيل.
وبقي الدكتور بوبو غير معني بتفاصيلنا، حتى جمعتني به أروقة إذاعة دمشق، كان يسجل برنامجاً لغوياً خفيف الدم والوقت، وأسجل برنامجين للإذاعة، فتوطدت العلاقة في الممرات وتبادلنا الأحاديث، وزادت أواصر العلاقة متانة، وفي عام ١٩٩٣ كنت طالباً أعدّ الماجستير في الجامعة اللبنانية، وعرضت عليه المشاركة في مؤتمر هناك بدعوة من الجامعة، وافق أستاذي، وذهبت برفقته ورفقة الروائي الراحل حنا مينه، وكان حضورهما مميزاً ورائعاً علمياً وإنسانياً، وكنت أسجل عدداً من الحلقات المتتالية، فاقترب مني أستاذي وسألني عن السبب، فأخبرته أنني وقعت عقداً مع جامعة الإمارات، وذلك عام ١٩٩٤ فقال: لا يا بني، فأنا أعلم أنك ستكون في مكان ما، وأعلم ذلك يقيناً، فلا داعي للسفر، ضحكت وقلت له: الأولاد لا ينتظرون أوراق اليانصيب يا أستاذي، وأنا تعودت أن أسير كالقطار وإن جاءت محطة أتوقف فيها وأتابع، وإن لم تأت فإنني لن أحمل حسرتها.. شجعني وغادرت.. وفي الإمارات عملنا على حضور أساتذتنا في أحد المؤتمرات، فحضر من سورية الدكتوران محمود السيد ومسعود بوبو، وقدّما صورة مشرفة للتجربة السورية آنذاك في تعليم اللغة العربية، وذكرّني في زيارته بما كان في آخر لقاء، وقال: أنت علي صواب، فقلت له: والآن أستاذي سأعود فقد صار لأولادي بيت. وفي آخر زيارة لي لدمشق، زرت أستاذي في هيئة الموسوعة العربية، وطلبت أن نجلس جلسة خاصة، لكنه كان يبتلع الأدوية ويعتصر بطنه بيده متألماً، ووعدني بأن نخرج في الإجازة القادمة، واكتفينا بهذه الجلسة، لأعلم بعد أيام من سفري برحيل الأستاذ الدكتور مسعود بوبو الذي مرّ في حياتي العلمية والإنسانية غيمة ممطرة بالحب.
الدكتور مسعود بوبو رحل تاركاً إرثه القليل، لكنه الغني بالحلم واللغة والشفافية، ويبقى أن أشير إلى ضرورة أن تقوم هيئة الموسوعة العربية، أو وزارة الثقافة بنشر تراثه القليل، وخاصة الصوت والصدى.. الغني بكل روح، والمفتقر إلى جودة الطبع والإخراج.

جمع سامي الدهان الثقافتين العربية والفرنسية

سارة سلامة

مجمع اللغة العربية يحيي الذكرى المئوية لولادة الراحل المجمعي والمحقق الدكتور سامي الدّهان الذي ولد في حلب سنة ١٩١٢، من خلال إصدار كتاب يتحدث عن سيرته الطويلة في الكتابة والترجمة والأدب، تأليف الدكتور عمر الدقاق.

حيث يسود الاعتقاد بأن المقومات الفطرية أقوى من المقومات المكتسبة، ومع ذلك لا يمكن أن نغفل أهمية المقومات المكتسبة وما للتربية من أثر في تكوين الإنسان، ومن الطبيعي أن تكون شخصية الدهان هي حصيلة هذين العنصرين، الفطري والمكتسب، ولكن نتاج العوامل المكتسبة لديه أكثر مما هو نتاج العوامل الفطرية، أو المواهب الذاتية، وكما يقول أحمد عصلة: «عقل ينتج، وجسد يتصرف، أكثر مما هو موهبة تبدع، وقريحة تجود، فقد كان اهتمامه بتربيته لنفسه منصباً على تنمية الشخصية الذاتية فيه، وهذا واضح في سلوكه وأخلاقه، وفي تفكيره العام، وفي هذا يكمن تفوقه، وتتجلى قدرته على الاكتشاف.

نشأته

ولد محمد سامي الدهان في الرابع من نيسان من عام ١٩١٢ للميلاد، لأب تاجر وأسرة لها تقاليدها القديمة، يقول في الحديث عن أسرته وعن وضعه فيها، واصفاً صديقه الذي يمثله في كتابه (درب الشوك): «لم يكن صديقي من أسرة تعنى بالعلم، وإنما كانت تسلك طريق التجارة، وهكذا كان الطفل منذ صغره يضيق ذرعاً بالزيارات والولائم التي يقيمها أبوه للأقارب والضيوف، ولعل أذنيه ملتا هذا الضجيج من غير طحن وكرهتا هذا الحديث المتكرر».
لقد ألحق سامي الصغير، بأحد الكتاتيب المنتشرة في حيه الشعبي القريب من باب النصر حيث استطاع أن يستظهر سوراً كثيرة من القرآن الكريم، أهلته لدخول المدرسة الفاروقية، وهي مدرسة ابتدائية وثانوية تجمع خيرة المدرسين، وألمّ باللغات الإنكليزية والفرنسية والتركية إلى جانب اللغة العربية، كما مارس النشاط المسرحي على مدى واسع، وتصدر مجلة للمدرسة يزينها الطلاب والمدرسون بمقالاتهم في العلوم والآداب، فزرع هذا النشاط في نفسه الناشئة حب العمل والكتابة والإنشاء.
ثم انتقل سامي إلى الثانوية الحكومية الوحيدة آنذاك أو المكتب السلطاني، وقد قوي ساعده الأدبي في تلك المدرسة التي كانت تهتم باللغة الفرنسية، وجعله أكثر قدرة على كشف أسرارها، فتحت نفسه للترجمة- وهو يافع صغير- وطفق فيما بعد ينشر ما يترجم أو يكتب من مقالات، في صحف سورية ولبنان ومصر، بتوقيعه حيناً وبالرمز إلى اسمه حيناً آخر.

شخصية الدهان

كان سامي الدهان جهماً قوي الجسم عريض المنكبين مفعماً بالحيوية طلق اللسان بادي الذكاء ذا فم واسع تتدفق منه الألفاظ بطلاقة ونبرات بادية القوة والوضوح، وامتاز بصوت جهوري مستملح قلما يكون ساكناً هادئاً، لأنه في صراع دائم مع نفسه، تلك النفس الكبيرة التي لا تستقر على حال، وتأبى عليه أن يخلد للهدوء، أو يرضى بحال، وهو عنيف لا يعرف الاعتدال إذا غضب أو أحب، ولكنه صديق مخلص، وطيب السريرة. إنه بارع في حديثه، لا يمل المرء سماعه، يتقن الفرنسية كأحد أبناء باريس. إنه واسع الخيال، دقيق الملاحظة، يتدفق في الكلام وكأنه نبع ماء ثرّ، حاضر البديهة سريع النكتة ولاذعها إذا اقتضى الحال، كما أنه واسع المعرفة، غزير الثقافة، يعرف الكثير عن مختلف الشعوب، وعن صفات الناس وأخلاقهم، ومع ذلك فهو لا يشبع من العلم ولا يرتوي من المعرفة.
إنه طراز متميز من الرجال، وكان كثير السخرية في حياته التعليمية والاجتماعية ومرحاً كل المرح، كذلك كان دقيق الانتباه مع المحافظة على الوقار والاحترام.

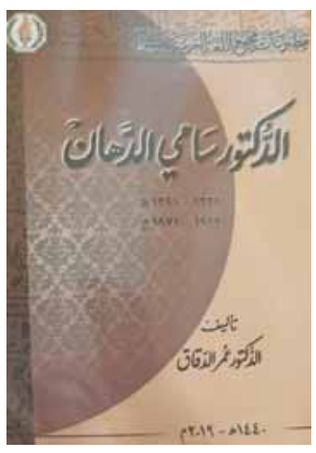

عناصر ثقافته

استطاع الدهان أن يجمع بين الثقافة العربية قديمها وحديثها، والثقافة الفرنسية، وهما الثقافتان الأساسيتان اللتان كونتا الدهان.
بدأت علاقة سامي الدهان بالفكر الفرنسي خلال يفاعته في حلب، فقد كان يسمع بالأدباء والشعراء الفرنسيين من أفواه أصدقائه المسيحيين الذين كانوا يحبونه ويرحبون بحضوره جلساتهم الأدبية، وقد أتاحت له تلك الجلسات أن يتعرف إلى المدرس الفرنسي «غوليه» ومن بعده إلى زميله «هنري لاوست»، اللذين أحباه كثيراً، وقدما له خامات كبيرة، وكان لهما الفضل الأول في إيفاده بعثة علمية إلى باريس لتحضير رسالة الدكتوراه في الآداب، فقد أحب سامي الدهان فرنسا والفرنسيين منتهى الحب، ومن يقرأ كتابه «درب الشوك» يجده دائم الحديث عن باريس والفرنسيين بصورة عامة.
لقد ترجم الدهان لمجموعة من إعلام الأدب والفكر الفرنسيين، وفي مقدمتهم «جان جاك روسو» و«ألفرد دي موسه» و«ألفونس دي لا مارتين» و«ألفرد دي فيني» و«بول فاليري»، كذلك ترجم إلى العربية كتابات أخرى مختارة من الأدب الفرنسي، كما لخص مجموعة من الروايات الفرنسية، قدمها للصحافة اليومية، أو للمجلات الشهرية من أشعار وقصص ذات روح رومانسية حالمة، تضج بالشكوى والأنين وتبوح بآلام النفس وأحاسيسها، مما كان معهوداً في الأوساط الأدبية الفرنسية.

أعماله

شرع الدهان في تعريب قصائد الرومانسيين، فترجم لفيكتور هوغو قصائد: «لست أخشى الشيخوخة» و«أغنية الموت» و«دجى الليل» و«نابليون الثاني» و«الفقراء» و«الصباح» و«الدعاء» و«الولد الإغريقي».
كما ترجم قصائد «الحزن» و«إيشيا» و«زفرة غرام» و«ابن جفته» و«موسى على الطور» و«الضحية» و«موت الذئب» لألفرد دي فيني، وقصائد «موت البجعة» و«وداعاً» و«الحب» لألفرد دي موسه.
يعد الدهان من المربين الناجحين، والمعلمين الممتازين، لما يتمتع به من صفات ذاتية أصيلة، وأخرى مكتسبة، أهلته لاحتلال مكانة عالية بين مربي جيله ومعلمي زمانه.
فالذكاء الحاد، والصبر والجلد، وجهارة الصوت وقوة الشخصية، وصفات مكنته من الاستحواذ على قلوب سامعيه، طلاباً وجمهوراً، فكان إذا حاضر أو تحدث شد إليه الانتباه طوال وقت الحديث، ولعب بعواطف مستمعيه، وعقولهم لعباً حميداً، وجعلهم كأنهم تلاميذه أبداً، يتعلقون به، ولا يجدون الزاد الثقافي الوفير إلا في منهله. يشهد بذلك كل من أصغى إلى دروسه أو محاضراته من مثقفي أيامنا.
استطاع الدهان أن يجمع بين تراثنا القديم والتجارب مع الفكر الحديث، ودون أن يفقد توازنه في المزاوجة بين النزعتين، ويمكن أن نعد الدهان تلميذاً لطه حسين في هذا المجال، ذلك أنه أيده في كثير مما ذهب إليه في «الشعر الجاهلي»، ودافع عنه في قضية هذا الكتاب، كما يرى أن الشك قائم في الشعر الجاهلي وفي غير الشعر الجاهلي، فقد قرأ شعر عنترة، ووقف عند بعض غزله، كما شك في كثير من شعر الشعراء الأمويين، وشعر العذريين من الغزلين، فقد شك في وفاء جميل بثينة، وشك في شعر ابن الدمينة.
اهتم الدهان بالشعر العربي الحديث اهتماماً كبيراً، وأبرز ذلك الاهتمام في مجموعة من الدراسات عن إعلام الشعر العربي الحديث في سورية، ولبنان ومصر، والمهجر، فقد تناول بالدراسة شعر كل من: بدوي الجبل، وعمر أبي ريشة، وخليل مردم، وشفيق جبري، وخير الدين الزركلي، ومحمد البزم، من شعراء سورية، وذلك في كتابة «الشعر الحديث في الإقليم السوري» الذي أعيدت طباعته ثانية تحت اسم «الشعراء الإعلام في سورية».